بسم الله الرحمن الرحيم

مؤسسة آل البيت الملكية للفكر الإسلامي

المؤتمر العام الخامس عشر لأكاديمية آل البيت الملكية

١٨-٢٠ شوال ١٤٣١هـ الموافق ٢٧-٢٩ أيلول/سبتمبر ٢٠١٠م

البيئة في الإسلام

القرآن والبيئة

الأستاذ الدكتور الشيخ عبد العزيز الخياط

بسم الله الرحمن الرحيم

مؤسسة آل البيت الملكية للفكر الإسلامي

عمان- المملكة الأردنية الهاشمية

بسم الله الرحمن الرحيم

القرآن والبيئة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين، وبعد:

فهذا حديث عن نصوص القرآن الكريم التي تناولت البيئة معناها وكل ما يتعلق بها وبدأ بهذا التمهيد .

بين يدي البحث

ما هي البيئة: معناها وأنواعها، حتى نستطيع أن نستعرض نصوص القرآن التي تناولتها في روعة البيان، ودقة الإعلام عما لم تكن دقائقه معروفة لدى الناس مما يؤكد إعجازه ونبوة محمد ρ الذي نزلت عليه آياته .

البيئة

هي كل ما يحيط بالإنسان أو الحيوان أو النبات ويؤثر في تكوينه أو على نموِّه أو سلوكه؛ أو "مجموعة الظروف الخارجية التي تؤثر على الكائن الحي".

وتختلف البيئات فمن بيئة طبيعية إلى بيئة اجتماعية إلى بيئة ثقافية إلى بيئة صناعية إلى بيئة اقتصادية إلى بيئة جمالية. وسوف نذكر الآيات القرآنية التي تتناول البيئة الطبيعية والصناعية وأثرهما على الإنسان وجمال الحياة. متحدثاً عن عناية القرآن بالبيئة واستخداماتها وتنمية ثرواتها، وحمايتها من أي تلوث يصيبها، وعنايته بالأرض بتربتها وجغرافيتها وتكوينها، وحرارة الأعاصير واتجاهها، وما تسوقه من أمطار، وعن الهواء وتنقيته وحمايته من التلوث .

ومتناولاً كذلك البيئة الصناعية وما تُحدثه من تلوثات، والمياه وما يعتريها من تلوث وضرورة حمايتها منه، وما ينـتج عن استعمالاتها من آثار سلبية على البيئة، وحرصاً على سلامة الإنسان، كما هدفت آيات القرآن وتعاليمه وإشاراته إليه من جعل حياة الإنسان سعيدة هانئة نقية نظيفة، وتوفير السعادة والطمأنينة والصحة والأمن له.

فالبيئة الطبيعية تتناول الأرض وتربتها وجغرافيتها وتكوينها الجيولوجي ويشمل تكويناتها الصخرية والرواسب السطحية، والتراكيب الجيولوجية كالصدوع والشقوق والجُدَد البيض والحمر والغرابيب السود (أي الطرق والجبال) وما يحدث فيها من تصدعات وفيضانات وانزلاقات، والمناخ باتجاهات الرياح والطاقات الحرارية والأمطار والأعاصير، كما يشمل الغطاء النباتي كالغابات والمناظر الجميلة والخضرة الماتعة والحيوانات التي تطير والحيوانات التي تدب على الأرض أو تعيش في المياه .

والبيئة الصناعية التي تكون في استعمالات الأراضي أو في بنية تحتية تشتمل على تمديدات المياه وإدارة النفايات، وتصريف مياه الأمطار والمجاري، ومصادر الطاقة المختلفة، ومصادر التلوث الصناعي، وحجم التلوث في الأرض والهواء والمياه الجوفية، وما ينتج عن المصانع والمركبات والاحتراقات والغاز واستعمال المبيدات والأسمدة. كما تشمل المياه العادمة المنـزلية والصناعية والزراعية ومياه الأمطار والسيول التي تحمل معها الزبد الرابي والأتربة المجروفة، وتشمل ما تخرجه من عادماتها. وضجيج تسببه الطائرات والمركبات والميكروفونات والمكبرات والإذاعات من صالات الأفراح وغيرها.

والبيئة الاجتماعية تكون في المدارس ومواقعها، والمتنـزهات العامة، والخدمات الترفيهية كالملاهي وعلب الليل وصالات الفنادق، أو الترويحية كالملاعب والمدن الترويحية، أو مناطق العمل وأسواق التجارة .

والبيئة الاقتصادية تكون في الطبقات الاقتصادية والأغنياء المترفين، والفقراء الكادحين والفقراء المسحوقين، مما يسبب مستويات مختلفة من الدخل.

النصوص القرآنية والبيئة:

القرآن كتاب الإسلام المنـزَّل، فصّل الله فيه أحكاماً كثيرة تتعلق بذاته، في أمور ثابتة لا تتغير كأصول العبادات والزواج والميراث والأخلاق وقواعد العلاقات البشرية والمعاملات. وفي أمور متغيرة تخضع لظروف الحياة وتقلبات العادات وتعدد البيئات واختلاف البلاد وجغرافيتها وطبيعتها، وقد تناولت آيات القرآن الكريم كل ما يتعلق بالبيئة التي ذكرنا تمهيداً لهذا البحث بذكر معناها وأنواعها .

ويتناول الحديث الموضوعات التالية:

أولاً: النصوص القرآنية المتعلقة بما يجري في هذا الكون من حولنا، وما خلق الله من عجائب المخلوقات حيوانية أو نباتية أو جامدة .

ثانياً: بيان معنى البيئة وتلوثاتها، وكيف يمكن حمايتها من هذا التلوث ورفع الضرر عن الإنسان منها .

ثالثاً: ضرورة استخدام ما هيأه الله للإنسان في الكون لمنفعته، واستخدام هذه الموجودات بما يحقق له رفاهه وصلاحه، وما ورد في ذلك من النصوص القرآنية المتعلقة ببيئة الإنسان .

وقد أورد الله سبحانه وتعالى في القرآن الكريم آيات كثيرة توضّح ما خلق الله للإنسان في هذا الكون من نعم وفيرة، ومخلوقات عديدة، تُكوِّن البيئة التي يعيش فيها. يتأمل الإنسان فيها للإيمان بالخالق عز وجل، ويستفيد منها ليحيا

الحياة النقية النظيفة المثلى قال تعالى: [لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ] [الأنفال: 42].

بيئة الفضاء:

قال تعالى: [فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٩٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُوا۟ بِهَا فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ] [الأنعام: 96- 97] وقال: [ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ] [الرحمن: 5]. وقال: [وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّٰهَا لِلنَّٰظِرِينَ] [الحجر: 16]. وقال: [وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا] [الأنبياء: 32]. وقال: [وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتٌۢ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ] [النحل: 12]. وقال: [أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ] [ق: 6].

يشعرنا الله سبحانه وتعالى في هذه الآيات الكريمة بنوع من أنواع البيئة التي نحيا فيها، وهي نِعَم السماء والنجوم والفضاء والشمس والقمر وما يمكن أن يراه الإنسان ويلمسه من الزينة والجمال في هذه البيئة الواسعة البهيجة. وجعلها تحت تصرفه حسب ما يترتب على البشر من المنافع والمصالح، يتمتعون بتعاقب الليل والنهار، وحرارة الشمس ودفئها وطاقتها، وتأثير القمر على الأرض بنوره ومدِّه وجزره في البحر، قال الآلوسي المفسر: "على أنّ التسخير مجاز لنفعكم حال كونها مسخرات لما خُلِقت له مما هو طريق لنفعكم"[1].

وقال الطبري المفسّر: "سخر لكم الليل والنهار يتعاقبان عليكم، هذا لتصرفكم في معاشكم، وهذا لسكنكم فيه، والشمس والقمر لمعرفة أزمانكم وشهوركم وسنينكم وصلاح معاشكم، والنجوم مسخرات لكم بأمر الله تجري في فلكها لتهتدوا بها في ظلمات البر والبحر"[2].

---

[1] الآلوسي، روح المعاني 4 / 349 .

[2] الطبري، جامع البيان في تفسير القرآن 4/ 506 .

وقال ابن كثير: "أي يجريان (الشمس والقمر) متعاقبين بحساب مقنن لا يختلف ولا يضطرب ".

ضياء الشمس:

(فالق الإصباح) وما في الشمس من طاقة هائلة متجددة تحفظ حياة الإنسان بقدر معلوم لا يزيد ولا ينقص فيهلكه، وتمدّ الحياة بالغذاء، وتعطي من عناصرها ما يبقي على عناصر الحياة الإنسانية جميعها، والليل للسكن والنهار للعمل، والبيئة الليلية والنهارية لمعرفة الزمن وفائدة النبات، وتحوّلات الأرض، والشمس والقمر لحساب السنين [يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ ۖ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ] [البقرة: 189].

والبيئة الجمالية في النجوم والسماء وما تعكسه على الأرض من زينة وبهاء، قال تعالى: [وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّٰهَا لِلنَّٰظِرِينَ] [الحجر: 16]. وقال سبحانه: [وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا] [الأنبياء: 32]. والسماء كل ما علانا، وقد اكتشف علماء الفلك بيئة فلكية من حلقة من الكويكبات تضرب نطاقاً حول المجموعة الشمسية بأسرها، وعندما يضطرب مسار أي كويكب يهوي نحو الشمس ويصبح مذنباً قادماً من الفضاء، ولكنه يصطدم بالغلاف الخارجي الذي يحيط بالأرض، فإذا دخل فيه ابيضّ من شدة الحرارة الناجمة عن الاحتكاك بالهواء، فالله جعل الهواء طبقة تحفظ الأرض وبيئتها، وهي السقف المحفوظ ولولاه لامتلأت الأرض بالحجارة والشهب في ثوان، أو لاشتعل فيها كل شيءٍ قابل للاحتراق، يضاف إلى ذلك أن طبقة الأوزون تحفظ سكان الأرض من تذبذب المناخ واضطرابه .

بيئـة الأرض:

وردت النصوص في بيئة الأرض وما فيها من نعم وخيرات ليحيا الإنسان حياة طيبة ويستثمر خيراتها، ويسعد بها ولا يشقى.

ونتناول بعض هذه النصوص - فهي كثيرة- فمن ذلك قول الله تعالى: [وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَٰهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ﴿٣٣﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ ٱلْعُيُونِ ﴿٣٤﴾ لِيَأْكُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ ۖ أَفَلَا يَشْكُرُونَ] [يس: 33- 35]. وقوله: [أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَٰمًا فَهُمْ لَهَا مَٰلِكُونَ ﴿٧١﴾ وَذَلَّلْنَٰهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴿٧٢﴾ وَلَهُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ وَمَشَارِبُ ۖ أَفَلَا يَشْكُرُونَ] [يس: 71- 73]. وقوله: [وَهُوَ ٱلَّذِى أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ۖ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا ﴿٤٨﴾ لِّنُحْيِىَ بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا وَنُسْقِيَهُۥ مِمَّا خَلَقْنَآ أَنْعَٰمًا وَأَنَاسِىَّ كَثِيرًا] [الفرقان: 48- 49]. وقوله سبحانه: [ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ ﴿٥٣﴾ كُلُوا۟ وَٱرْعَوْا۟ أَنْعَٰمَكُمْ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ] [طه: 53- 54]. وقوله: [وَمَا يَسْتَوِى ٱلْبَحْرَانِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَآئِغٌ شَرَابُهُۥ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ ۖ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا ۖ وَتَرَى ٱلْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ] [فاطر: 12]. وقوله: [أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِىَ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ] [النمل: 61]. وقوله في آيات جامعة: [وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْزُونٍ ﴿١٩﴾ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ وَمَن لَّسْتُمْ لَهُۥ بِرَٰزِقِينَ ﴿٢٠﴾ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢١﴾ وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَسْقَيْنَٰكُمُوهُ وَمَآ أَنتُمْ لَهُۥ بِخَٰزِنِينَ] [الحجر: 19- 22].

تشير هذه الآيات إلى البيئة التي خلقها الله للإنسان والنِّعم التي أنعمها عليه، فكل ما في الأرض من خيرات؛ من تمهيد الأرض للسكنى والعيش، ومن كثرة الموارد المائية المالحة والعذبة، وما يخرج منها من مأكل ومشرب وملبس وزينة، ومن البحار التي تمخر فيها السفن، وفيها ما لا يحصى من مخلوقات وخيرات، وفي الأرض جبال رواس، ومن ثروات معدنية، وحجارة للأبنية،

ومن أشجار وحدائق ذات بهجة وجنائن معلّقة وغير معلّقة، وجنات معروشات وغير معروشات، وثمار مختلفة الطعوم والألوان والروائح والفوائد، كلها مهيّئة لصالح الإنسان وبقائه وتحسين صحته وبيئته: [فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ﴿٢٤﴾ أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾ فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿٢٩﴾ وَحَدَآئِقَ غُلْبًا ﴿٣٠﴾ وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ﴿٣١﴾ مَّتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ] [عبس: 24-32]، [... وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ...] [إبراهيم: 34].

الاستفادة من البيئة:

خلق الله هذه الخيرات، وأوجد لنا بيئة طبيعية نقية، متكاملة متوازنة، مناخاً طيباً وهواءً نقياً [وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ] [الأعراف: 57]، [ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُۥ فِى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ يَشَآءُ...] [الروم: 48]. وتربةً في كل تكويناتها وتراكيبها ومياهها وعناصرها [أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا ۚ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِى ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَٰعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ ۚ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ] [الرعد: 17]. [وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴿٣٠﴾ أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا ﴿٣١﴾ وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا ﴿٣٢﴾ مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ] [النازعات: 30- 33]. [وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥ] [النحل: 13]. [وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَٰرًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ] [النحل: 15]. [وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ] [الحديد: 25]. فكل هذه النعم متاع لكم، أجرى من الأرض عيون الماء المتفجرة، وأجرى الأنهار وأنبت الزروع مثل القمح والشعير والفول والعدس والفجل والبصل والثوم وغيرها، وأنبت العشب والشجر وأخرج منها النار ومن الحجر، وأوجد لكم من الأنعام المأكل واللباس، ومن الماء الملح والبوتاس والصوديوم والدواء وغيره، والحديد تنتفعون به سلاحاً وتحصنون به بيوتكم وتوجدون أدوات زرعكم وبنائكم، وخلق لكم أنعاماً وحيوانات [وَٱلْأَنْعَٰمَ خَلَقَهَا ۗ لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَٰفِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ] [النحل: 5]. [

وَعَلَيۡهَا وَعَلَى ٱلۡفُلۡكِ تُحۡمَلُونَ] [المؤمنون: 22] . [وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلۡتُمُوهُ] [إبراهيم: 34] من طاقات حرارية، وموارد مائية، وتربة صالحة، وغابات وأشجار وحيوان، وهواء نقي، يحمل طائراتكم وصواريخكم ومركباتكم في الهواء كما يحمل سفنكم في البحر [... وَيَخۡلُقُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ] [النحل: 8] كل ذلك من أجل أن ينعم الإنسان بهذه البيئة، وتبقى خلقته سوية سليمة صالحة نافعة [... فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ] [القيامة: 38]، [... وَصَوَّرَكُمۡ فَأَحۡسَنَ صُوَرَكُمۡ ...] [غافر: 64] .وعلى الإنسان أن يستفيد من هذه البيئة، وأن يحافظ عليها، ولا يؤذيها ولا يفسدها، ولا يشوه جمالها، ولا يذهب بنقائها، ولا يتلف منافعها، ولا يُضَيِّع ثرواتها، ولا يهلك حيوانها، بل يحميها من التلف والعدوان والإسراف والتبديد والإفساد والعوارض والآفات قال عليه الصلاة والسلام «أصلحوا الدّنيا واعملوا لآخرتكم كأنكم تموتون غدا»[3] وقال: «إنّ أطيب ما أكل الرجل من كسب يده»[4]، وقال: «ما من مسلم يزرع زرعاً أو يغرس غرساً فيأكل منه طير أو إنسان أو بهيمة إلّا كان له صدقة»[5]، وقال: «مَن أحيا أرضاً ميْتَةً فهي له»[6]، وفي رواية: «فله فيها أجر»[7]، وصدق الله سبحانه [لِيَأۡكُلُواْ مِن ثَمَرِهِۦ وَمَا عَمِلَتۡهُ أَيۡدِيهِمۡۖ أَفَلَا يَشۡكُرُونَ] [يس: 35] وقوله: [... لَعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ] [البقرة: 53].

التحذير من فساد البيئة:

جاءت النصوص الكثيرة محذرةً من فساد البيئة ومخاطر هذا الفساد وأسبابه، والنصوص القرآنية لا تحريف فيها ولا تبديل ولا تغيير، وهي المعتمدة في الاستشهاد، والإنسان المسلم ملزم بالأخذ بها، لأنه ليس نصاً دينياً فحسب،

---

[3] كنز العمال /42111 .

[4] رواه النسائي وابن حنبل والبيهقي .

[5] رواه الترمذي وابن حنبل والبيهقي .

[6] رواه أبو داود والترمذي وابن حنبل .

[7] رواها النَّسائي وابن حبان .

بل لأنه نصّ ثابت منهجي معجز، من لدن خالق حكيم مدبر عالم الغيب قدير، وما دام معجزاً فلا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه [إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ] [الحجر: 9].

حذر الإسلام في القرآن من فساد البيئة وإفسادها، قال تعالى: [ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ] [الروم: 41]، والمراد بالبرِّ -كما يقول المفسرون- الفيافي، وبالبحر القرى والأمصار، وهما كلمتان أعمّ فالبر اليابسة المعروفة والبحر المعروف بمحيطاته ومياهه وأنهاره وأجوافه، وقال عطاء (أحد كبار التابعين): "المراد بالبر ما فيه من المدائن والقرى وبالبحر جزائره"[8]. وظهور الفساد بانقطاع المطر والثمار ونقص الأموال والقحط[9]، وكثرة السيول الجارفة والصواعق الحارقة المهلكة والأعاصير المدمرة، والأمراض التي لم تكن معروفة من قبل كالإيدز والسرطان وحمى النيل المتصدع وأنفلونزا الطيور والخنــازير، وذلك بسبب كسب الإنسان وفعله السيىء، بهذه الملوثات التي أوجدها ونشرها نتيجة الصناعات والمصانع والمخترعات، وبالنفايات الضارة المليئة بالجراثيم أو النفايات الذرية التي أودعها باطن الأرض أو رماها في البحر، أو بالمعاصي والمنكرات والمظالم التي أفسد بها حياته، وأضاع أمنه وطمأنينته، ولوّث بيئته، مما أدى إلى ظهور الأمراض والآفات الاجتماعية التي لم تكن من قبلُ، ولقوله تعالى كما ذكرت: [... لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ] [البقرة: 53]. قال العلماء: "من عصى الله في الأرض فقد أفسد الأرض لأن صلاح الأرض والسماء بالطاعة"، ولهذا جاء في الحديث عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: "أقبل علينا رسول الله ρ فقال : يا معشر المهاجرين : خمس خصال إذا ابتليتم بهنَّ، وأعوذ بالله أن تدركوهن: لم تظهر الفاحشة في قوم قطُّ حتى يعلنوا بها إلّا فشا فيهم الطاعون والأوجاع التي

---

[8] ابن كثير، تفسير القرآن العظيم 3 / 435 .

[9] المصدر نفسه .

لم تكن مضت في أسلافهم الذين مضوا (الأمراض الوبائية الحاصدة الأرواح المؤلمة المزعجة)، ولم ينقصوا المكيال والميزان إلّا أُخذوا بالسنين (المجاعة والقحط وشدة الجدب وذهاب البركة من الزروع والأزمات الخانقة) وشدة المؤنة (الأثقال والهموم والأحزان) وجور السلطان عليهم، ولم يمنعوا زكاة أموالهم إلّا مُنعوا القطر من السماء، ولولا البهائم لم يُمطروا، ولم ينقضوا عهد الله وعهد رسوله إلّا سلط الله عليهم عدوّاً من غيرهم فأخذوا بعض ما في أيديهم (كالبترول والتجارة والصناعة والأسواق الحرة والموانئ الحرة ومناجم الذهب) وما لم تحكم أئمتهم بكتاب الله تعالى ويتخيروا فيما أنزل الله إلّا جعل الله بأسهم بينهم"[10].

والظلم من أعظم المفاسد التي تستدعي فساد البيئة، والعدل إذا أقيم كَثُر الخير ونَشَط الناس للعمل، ومطروا بالمطر الصيِّب، ورزقوا بالأقوات من كل مكان، قال تعالى: [وَلَوۡ أَنَّ أَهۡلَ ٱلۡقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوۡاْ لَفَتَحۡنَا عَلَيۡهِم بَرَكَٰتٖ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ...] [الأعراف: 96]، ومن هنا جاء قوله تعالى: [لِيُذِيقَهُم بَعۡضَ ٱلَّذِي عَمِلُواْ ...] [الروم: 41]، وهو مصداق قوله تعالى: [وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا قَرۡيَةٗ كَانَتۡ ءَامِنَةٗ مُّطۡمَئِنَّةٗ يَأۡتِيهَا رِزۡقُهَا رَغَدٗا مِّن كُلِّ مَكَانٖ فَكَفَرَتۡ بِأَنۡعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلۡجُوعِ وَٱلۡخَوۡفِ بِمَا كَانُواْ يَصۡنَعُونَ] [النحل: 112]، وقوله: [مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِي هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا كَمَثَلِ رِيحٖ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتۡ حَرۡثَ قَوۡمٖ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ فَأَهۡلَكَتۡهُۚ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِنۡ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ] [آل عمران: 117]، والكفران بأنعم الله هو جحودها بعدم العمل بها، وبعدم عمران الأرض وبإهمالها، وعدم طاعة الله، فأصابها الجوع، لأنها أهملت الأرض، والإسلام يدعو إلى الاستفادة من البيئة قال تعالى: [... فَٱنتَشِرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَٱبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرٗا لَّعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ

---

[10] رواه ابن ماجه واللفظ له ورواه البزار والبيهقي ورواه الحاكم بنحوه من حديث بريدة وقال"صحيح على شرط مسلم" . الترغيب والترهيب للحافظ المنذري 2 / 568 .

] [الجمعة: 10]، وقال ρ: «التمسوا الرزق في خبايا الأرض»[11]، والجوع نقص الثمر بقلة المطر، وكثرة الأوبئة لكثرة الملذات والإسراف، وإصابة الخوف الضعف والهوان وتسلّط الغير، بسبب الكفران بأنعم الله فلم تستعد، وإهمالها فلم تجاهد، وكسلها فلم تعمل ولم تتق الله.

وقال تعالى: [لَقَدۡ كَانَ لِسَبَإٖ فِي مَسۡكَنِهِمۡ ءَايَةٞۖ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٖ وَشِمَالٖۖ كُلُواْ مِن رِّزۡقِ رَبِّكُمۡ وَٱشۡكُرُواْ لَهُۥۚ بَلۡدَةٞ طَيِّبَةٞ وَرَبٌّ غَفُورٞ ١٥ فَأَعۡرَضُواْ فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ سَيۡلَ ٱلۡعَرِمِ وَبَدَّلۡنَٰهُم بِجَنَّتَيۡهِمۡ جَنَّتَيۡنِ ذَوَاتَيۡ أُكُلٍ خَمۡطٖ وَأَثۡلٖ وَشَيۡءٖ مِّن سِدۡرٖ قَلِيلٖ ١٦ ذَٰلِكَ جَزَيۡنَٰهُم بِمَا كَفَرُواْۖ وَهَلۡ نُجَٰزِيٓ إِلَّا ٱلۡكَفُورَ] [سبأ: 15- 17] ، قال المفسرون ـوأيدهم التاريخـ "كانوا في نعمة وغبطة في بلادهم وعيشهم واتساع أرزاقهم وزروعهم وثمارهم، وبعث الله إليهم الرسل تأمرهم أن يأكلوا من رزقه ويشكروا بتوحيده وعبادته، فكانوا كذلك ثم أعرضوا عن أمره واتباع رسله فعوقبوا بإرسال السيل والتفرق في البلاد أيدي سبأ شذر مذر"[12]، والمعاقبة تحدث للأمة التي تهمل طاعة الله وعبادته، وكل عمل مفيد عند الله عبادة، فإصلاح الأرض وبناء السدود والزراعة والإنبات والحرث من الأمور المادية مثل اتباع الأخلاق العالية والإحسان إلى الناس، والعدل وتجنب الظلم، والأمانة والبعد عن الخيانة، والجهاد وعدم القعود عنه؛ كل ذلك عبادة، فإذا لم تُفعل وتُؤدَّ كانت النتيجة أن ترتبط الأسباب بالمسببات، فإذا قلنا إن القحط الذي يصيبنا، والركود الاقتصادي الذي يقع علينا، وكثرة الأمراض التي تنتابنا، وتسلط اليهود علينا، وسيطرة الغربيين وأمريكا علينا وانتهابهم لخيرات بلادنا، إذا قلنا إن ذلك ناشئ عن معصيتنا فهذا صحيح [ذَٰلِكَ جَزَيۡنَٰهُم بِمَا كَفَرُواْۖ وَهَلۡ نُجَٰزِيٓ إِلَّا ٱلۡكَفُورَ] [سبأ: 17] فالباء في قوله تعالى: [بما] سببية أي بسبب كفرهم، والكفر هنا نكران النعمة .

---

[11] كنز العمال / 9303.

[12] حاشية الجمل على الجلالين 3/ 467 . تفسير ابن كثير 3 / 530 .

وقال تعالى: [إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ [13] كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا۟ لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ[14] ﴿١٧﴾ وَلَا يَسْتَثْنُونَ[15] ﴿١٨﴾ فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿١٩﴾ فَأَصْبَحَتْ كَٱلصَّرِيمِ[16] ﴿٢٠﴾ فَتَنَادَوْا۟ مُصْبِحِينَ ﴿٢١﴾ أَنِ ٱغْدُوا۟ عَلَىٰ حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰرِمِينَ[17] ﴿٢٢﴾ فَٱنطَلَقُوا۟ وَهُمْ يَتَخَٰفَتُونَ ﴿٢٣﴾ أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا ٱلْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ[18] ﴿٢٤﴾ وَغَدَوْا۟ عَلَىٰ حَرْدٍ[19] قَٰدِرِينَ ﴿٢٥﴾ فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوٓا۟ إِنَّا لَضَآلُّونَ[20] ﴿٢٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ[21] ﴿٢٧﴾ قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ ﴿٢٨﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَٰوَمُونَ ﴿٣٠﴾ قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا طَٰغِينَ ﴿٣١﴾ عَسَىٰ رَبُّنَآ أَن يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِّنْهَآ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا رَٰغِبُونَ ﴿٣٢﴾ كَذَٰلِكَ ٱلْعَذَابُ ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ] [القلم: 17- 33] فهؤلاء قوم أحسنوا في أرضهم وزراعتهم، فحسنت بذلك بيئتهم بنبات الزرع وحسن الإنتاج، فنووا أن يمنعوا حق الله وحق المجتمع حق إخوانهم المساكين، وهذا إفساد للبيئة الاجتماعية، فأذهب الله عنهم حسن البيئة الطبيعية لذلك، واعترفوا بذنبهم [قَالُوا۟ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ] [القلم: 29] أي عاصين حتى أصابنا ما أصابنا، وأمَّلوا من الله أن يبدلهم خيراً من جنتهم التي بادت، ولكن هيهات فقد فات الأوان ولات حين مندم، فحق عليهم العذاب [كَذَٰلِكَ ٱلْعَذَابُ ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ ...] [القلم: 33]. وصدق الله [فَذَرْنِى وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا

---

[13] بلوناهم : اختبرناهم .

[14] ليصرمنها مصبحين : ليقطعون ثمرها في الصباح .

[15] أي لا يفرزون منها حق الزكاة ليؤدوه إلى الفقراء .

[16] أي كالأرض المقطوع شجرها .

[17] أي قاطفين للثمر من صرم بمعنى قطع وقطف .

[18] أي لا تعطوا الفقراء حق الله منها، فكان تخافتهم حتى لا يحس بهم الفقراء فيدخلوا بستانهم فيطلبوا منهم . وقد كان أبوهم يعطي الفقراء منها .

[19] حرد : منع للفقراء .

[20] أي لما رأوها سوداء محترقة قالوا لقد تهنا عن بستاننا .

[21] أي استدركوا أمرهم فعلموا أنه بستانهم فقالوا إنا محرومون من ثمرها .

ٱلۡحَدِيثِۖ سَنَسۡتَدۡرِجُهُم مِّنۡ حَيۡثُ لَا يَعۡلَمُونَ ۝٤٤ وَأُمۡلِي لَهُمۡۚ إِنَّ كَيۡدِي مَتِينٌ] [القلم 44-45] فلا تستغربوا بعد ذلك أن فسدت عليكم بيئتكم.

وقال الله تعالى: [فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهۡلِكُواْ بِٱلطَّاغِيَةِ[22] ۝ وَأَمَّا عَادٞ فَأُهۡلِكُواْ بِرِيحٖ صَرۡصَرٍ عَاتِيَةٖ[23] ۝ سَخَّرَهَا عَلَيۡهِمۡ سَبۡعَ لَيَالٖ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومٗا[24] فَتَرَى ٱلۡقَوۡمَ فِيهَا صَرۡعَىٰ كَأَنَّهُمۡ أَعۡجَازُ نَخۡلٍ خَاوِيَةٖ ۝ فَهَلۡ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٖ ۝ وَجَآءَ فِرۡعَوۡنُ وَمَن قَبۡلَهُۥ وَٱلۡمُؤۡتَفِكَٰتُ[25] بِٱلۡخَاطِئَةِ ۝ فَعَصَوۡاْ رَسُولَ رَبِّهِمۡ فَأَخَذَهُمۡ أَخۡذَةٗ رَّابِيَةً] [الحاقة: 5-10].

وما أكثر الأعاصير والزلازل والطوفان والقحط والأمراض التي تنشأ عن المعاصي كالإيدز من الشذوذ، والسيلان من الزنا، وحمى النيل المتصدع والبلهارسيا والملاريا وغيرها من فساد البيئة، وقد قال ρ مصداقاً للحديث الذي سبق أن ذكرناه «لا تزال أمتي بخير ما لم يفشُ فيهم الزنا فإذا فشا فيهم ولد الزنا فأوشك أن يعمهم الله بعذاب»[26]، وفي رواية ابن ماجه عن عبد الله بن عمر من حديث، أن رسول الله ρ قال: «وإذا ظهر الزنا ظهر الفقر والمسكنة» أي عمَّ الفقر واشتدت الأزمات وانتشر الذل والضعف[27].

حمايـة البيـئة:

قال سبحانه: [إِنَّا عَرَضۡنَا ٱلۡأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱلۡجِبَالِ فَأَبَيۡنَ أَن يَحۡمِلۡنَهَا وَأَشۡفَقۡنَ مِنۡهَا وَحَمَلَهَا ٱلۡإِنسَٰنُۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومٗا جَهُولٗا] [الأحزاب: 72].

---

[22] الطاغية : الرجفة وهي الزلزلة الشديدة .

[23] صرصر : شديدة الصوت عاتية أي مهلكة

[24] حسوماً : متتابعات .

[25] قرى لوط .

[26] رواه أحمد بن حنبل .

[27] الترغيب والترهيب 3 / 169 .

الأمانة هي الفرائض والحدود، والأمانة أبت أن تحملها السماوات بكل ما فيها من شموس وأقمار ونجوم وكواكب وفضاء وبكل ما يحدث من سحب وأمطار ورياح وأعاصير، وقد عرض عليها الله أن تحملها، وأبت الأرض كذلك بنباتها ووديانها وأنهارها ومياهها وبحارها وخيراتها، وأبت الجبال أيضاً أن تحمل الأمانة وهي الجبال الراسيات، لا عدم طاعة لله عز وجل وهو خالقها، وما كان لها أن تعصيه، ولكن إشفاقاً من حملها وخوفاً من عدم القيام بأعباء حملها، فأدَّيْن الأمانة ولم يَخُنَّ فيها .

وحملها الإنسان، فأعطاه الله خيرات السماوات والأرض والجبال كلها، وجعلها بين يديه، ووصفه الله بالظالم لنفسه الجهول بعاقبة هذا الذي حمله، وتلك حكمة الله فيه، فلم يرعها حق رعايتها، ولم يقم بطاعة الله فيها، فأفسدها، أفسد بيئتها بكيماوياته ومخترعاته ونفاثاته وزيوته ومبيداته ونفاياته، فلوَّث المياه ؛ بحاراً وأنهاراً وبحيراتٍ ومياهاً جوفية وينابيع. ولوّث الهواء والتراب، وأساء لصحة الإنسان فأفسد جسمه بالترهل والأمراض والعاهات والإصابات، ولوَّث الأخلاق بالمعاصي والاستهلاك المُتْرَف المسرف، والأوساخ وانتشار البغاء والشذوذ الجنسي والمسكرات والخمور والحشيش والمخدِّرات والظلم، وعاث في الأرض بأنواع الفساد، وبهذا خان الأمانة، وضيَّع المسؤولية ولم يعمل على تلافي الموبقات وآثار المفسدات، فكانت العاقبة [وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنۢ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ۚ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰٓ][طه: 124- 127].

وما العمل لنحمي بيئتنا من هذه الملوِّثات؟

أولاً :

أن نشكر الله عز وجلَّ على نعمه بالطاعة والاستغفار، والإقلاع عن المعاصي [فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ۝١٠ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا] [نوح: 10- 11]، [... وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ ...] [هود: 52]، وقال: [إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُوْلِى ٱلْأَلْبَٰبِ ۝١٩٠ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ] [آل عمران: 190- 191].

ثانياً:

العمل في البيئة بإحسان ، قال تعالى: [فَٱسْتَبِقُواْ ٱلْخَيْرَٰتِ] [البقرة: 148]، وقال ρ «إنه خلق كل إنسان من بني آدم على ستين وثلاثمائة مفصل فمن مجَّد الله، وحمد الله، وهلل الله، وسبح الله، واستغفر الله، وعزل حجراً عن طريق الناس أو شوكةً أو عظماً، أو أمر بمعروف أو نهى عن منكر، عدد الستين والثلاثمائة فإنه يمسي يومئذٍ وقد زحزح عن النار»[28]، فهذا الحديث دعوة إلى العمل الدائب طيلة النهار، وإنماء للخير، واتصال بالله بالذكر، وتنظيف للبيئة بإزالة المفسدات للطريق، وإصلاح وتعليم وإرشاد للمجتمع، وإبعاد للأذى والمنكر فهو تعامل مع البيئة بإحسان. وقال أيضاً: «ما من مسلم يغرس غرساً إلّا كان ما أُكل منه له صدقة، وما سُرق منه له صدقة، ولا يرزؤه أحد إلّا كان له به صدقة»[29]، وقد ورد أن النبي عليه الصلاة والسلام عامل أهل خيبر "أي زارعهم" بشطر ما يخرج منها من زرع أو ثمر، وكان يعطي أزواجه مائة وسق، ثمانون من تمر وعشرون من شعير[30]، وقسم عمر τ خيبر وخيَّر أزواج النبي ρ أن يُقطع لهنَّ من الماء والأرض أو يُمضي لهن، فمنهن من اختار الأرض ومنهن من اختار الوسق، وكانت عائشة وحفصة ممن اختـــار

---

[28] رواه مسلم،كنز العمال 1638 .

[29] رواه مسلم .

[30] رواه البخاري .

الأرض، يقول محمد بن عبد الرحمن الصابي الحبشي مؤلف كتاب "البركة في فضل السعي والحركة" في هذا الحديث فوائد منها اختيار عائشة وحفصة أفضل أزواج النبي ρالأرض ليزرعنها"[31]، وقد قال أبو جعفر "ما بالمدينة أهل بيت هجرة إلّا ويزارعون على الثلث والربع"[32]، وقال عليه السلام: «من أحيا أرضاً ميْتة ثقة بالله واحتساباً كان حقاً على الله أن يعينه وأن يبارك له»[33]، وقال: «سبع يؤجر فيها الرجل ما عمل بهنَّ مَن بعده، مَن بنى مسجداً له أجره ما دام يصلى فيه (وهذا إعمار للبيئة الاجتماعية)، ومَن أجرى نهراً، فما دام يجري فيه ماء يشرب منه الناس كان له أجره، ومَن كتب مصحفاً فإن له أجره ما دام يقرأ فيه أحد (وهذا أيضاً نشر للعلم والهدى لإعمار البيئة الاجتماعية، ومنه طباعة المصحف والكتب المفيدة)، ومن استخرج عيناً ينتفع بمائها كان له أجرها ما بقيت (أي استخراج الآبار الارتوازية والكشف عن الينابيع)، ومن غرس غرساً كان له أجره فيما أكل الناس منه والطير، ومن علَّم علماً كذلك، ومن ترك ولداً يستغفر له ويدعو له»[34]، وواضح في هذا الحديث الدعوة إلى إعمار البيئة الاجتماعية، والبيئة الثقافية وهداية الناس ونشر العلم وحماية البيئة من الجفاف والقحط والضمور والتلوث بالزرع والغرس واستخراج الينابيع والآبار الارتوازية وكثرة النسل الصالح المعمِّر للحياة .

وقال عليه الصلاة والسلام: «التمسوا الرزق في خبايا الأرض»[35]، وقال: «خير المال سكة مأبورة وفرس مأمورة»[36]، وعن جابر بن عبد الله أن

---

[31] البركة / 14 .

[32] البركة / 15 .

[33] رواه الترمذي وأبو داود .

[34] رواه البزار .

[35] كنز العمال / 9303 .

[36] مجمع الزوائد 5 / 258، والسكة : السطر المصطف من الشجر والنخيل، والمأبورة : الملقحة .

رسول الله ρ قال: «أغلقوا الأبواب، وأوكئوا السِّقاء، وأكفئوا الإناء، وخمِّروا الإناء، وأطفئوا المصباح، فإنّ الشيطان لا يفتح غلقاً ولا يحل وِكاءً ولا يكشف إناءً، وإن الفُوَيسقة[37] تُضرِم على الناس بيوتهم»[38]، وقال: «لا تتركوا النار في بيوتكم حين تنامون»[39]، فهذه الأحاديث دعوة صريحة إلى حماية البيئة ومنع تعرضها لما يفسدها.

وقال الغزالي: "القيام بحق العيال بكسب الحلال أفضل من العبادات البدنية"، وكان ρ يتّخذ الحمى للرعي وللعناية بالمواشي (وهي المسماة بالمحميات اليوم).

وكان الصحابة والتابعون والأفراد الصالحون يعملون في حماية البيئة وصلاحها، فنبينا عليه السلام كان يعمل بيده، وعلي τ كان يطحن الرحى، وأبو هريرة كان يحمل حزمة الحطب وهو أمير لمروان بن الحكم .

وقد قال ρ: «البركة في التجارة»، كما قال: «الغنم بركة والإبل عزٌّ لأهلها»، وقال: «خير المال الغنم، وخير المرعى الأراك والسَّلَم» ففيه العناية بالبيئة والمراعي، وقال: «اتخاذ النخل بركة»، وقال: «أكرموا النخلة»[40]، وكان يدعو إلى اتخاذ العسل ففيه شفاء وغذاء، وصدق الله تعالى: [وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾ ثُمَّ كُلِى مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسْلُكِى سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا ۚ يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ] [النحل: 68- 69]، وقد لام عليه الصلاة والسلام مَن روَّع أمَّ الطير بأخذ فراخها وبيضها، وحمى كلبة كانت تُرضِع أهراءها من أن يدوسها جيشه الزاحف لفتح مكة المكرمة، ومنع من إيذاء الدواب ودعا إلى الإحسان إليها وعدم تحميلها ما لا تطيق.

---

[37] الفأرة .

[38] رواه البخاري ومسلم .

[39] المصدر نفسه.

[40] عبد الرحمن بن علي الوصابي 201 - 204 .

وأختم هذه النّصوص من آيات القرآن الكريم بقوله سبحانه وتعالى: [فَأَنۢبَتۡنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهۡجَةٖ] [النمل: 60]، وقوله: [وَٱلۡأَنۡعَٰمَ خَلَقَهَاۚ لَكُمۡ فِيهَا دِفۡءٞ وَمَنَٰفِعُ وَمِنۡهَا تَأۡكُلُونَ ۝٥ وَلَكُمۡ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسۡرَحُونَ ۝٦ وَتَحۡمِلُ أَثۡقَالَكُمۡ إِلَىٰ بَلَدٖ لَّمۡ تَكُونُواْ بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلۡأَنفُسِۚ إِنَّ رَبَّكُمۡ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٞ ۝٧ وَٱلۡخَيۡلَ وَٱلۡبِغَالَ وَٱلۡحَمِيرَ لِتَرۡكَبُوهَا وَزِينَةٗۚ وَيَخۡلُقُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ۝٨ وَعَلَى ٱللَّهِ قَصۡدُ ٱلسَّبِيلِ وَمِنۡهَا جَآئِرٞۚ وَلَوۡ شَآءَ لَهَدَىٰكُمۡ أَجۡمَعِينَ ۝٩ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ لَّكُم مِّنۡهُ شَرَابٞ وَمِنۡهُ شَجَرٞ فِيهِ تُسِيمُونَ ۝١٠ يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرۡعَ وَٱلزَّيۡتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلۡأَعۡنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ۝١١ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتُۢ بِأَمۡرِهِۦٓۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ۝١٢ وَمَا ذَرَأَ لَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُخۡتَلِفًا أَلۡوَٰنُهُۥٓۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَذَّكَّرُونَ ۝١٣ وَهُوَ ٱلَّذِي سَخَّرَ ٱلۡبَحۡرَ لِتَأۡكُلُواْ مِنۡهُ لَحۡمٗا طَرِيّٗا وَتَسۡتَخۡرِجُواْ مِنۡهُ حِلۡيَةٗ تَلۡبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلۡفُلۡكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِهِۦ وَلَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ۝١٤ وَأَلۡقَىٰ فِي ٱلۡأَرۡضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمۡ وَأَنۡهَٰرٗا وَسُبُلٗا لَّعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ ۝١٥ وَعَلَٰمَٰتٖۚ وَبِٱلنَّجۡمِ هُمۡ يَهۡتَدُونَ ۝١٦ أَفَمَن يَخۡلُقُ كَمَن لَّا يَخۡلُقُۗ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ۝١٧ وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ] [النحل: 5 - 18]، وكلها تدعو إلى تحسين البيئة وتجميلها وتزيينها والعناية بها والحفاظ على الحيوانات الآهلة والبريَّة .

تجنب تلويث البيئة:

1 - بالنظافة، قال عليه الصلاة والسلام: «إن الله طيب يُحب الطيب، نظيف يُحب النظافة، كريم يحب الكرم، جواد يحب الجود، فنظفوا أفنيتكم، ولا تشَبهوا باليهود يجمعون الأكباد[41] في بيوتهم»[42]، وقال: «غسل الإناء

---

[41] الأكباد : الكُناسات .

[42] رواه الترمذي .

وطهارة الفِناء[43] يورث الغنى»[44]، وقال: «بُني الدين على النظافة»[45]، وقال: «لبس الثوب النظيف ينفي الهم»[46]، وقال: «تخللوا فإنه نظافة والنظافة تدعو للإيمان»[47]، وهكذا دعا الإسلام إلى نظافة الإنسان والمكان والثياب والبيئة .

2 - بالاهتمام بجمال البيئة فقد روى أبو داود في سننه عن النبي ρ قوله: «إن الله جميل يحب الجمال»، وكان عليه السلام يستبشر بالمطر أول نزوله وأول الزرع ويقول: «إنه حديث بربه»، والله سبحانه وتعالى يقرر للبيئة قيمة الجمال فيقول: [فَأَنۢبَتۡنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهۡجَةٖ] [النمل: 60]، ويقول: [وَلَكُمۡ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسۡرَحُونَ] [النحل: 6]، ويقول: [وَلَقَدۡ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنۡيَا بِمَصَٰبِيحَ] [الملك: 5]، وقد نهى النبي ρ عن سبِّ الريح فهي مبشرة بالرحمة والنعمة، ووصف الله تبارك وتعالى جمال الصبح فقال: [وَٱلصُّبۡحِ إِذَا تَنَفَّسَ] [التكوير: 18].

ولا يجوز تلويث البيئة بأي نوع من أنواع التلويث، سواءً أكان معروفاً في القدم أم لم يكن معروفاً، أو استُحدث في أيامنا هذه . وتلويث البيئة بقطع الشجر لغير حاجة، والاعتداء على المزروعات وإفسادها، والاعتداء على الحيوانات وقتلها بغير مبرر، وقد ورد النهي في كل وصايا النبي ρ وأصحابه

---

[43] ساحة الدار .

[44] أورده الديلمي عن أنس مرفوعاً، كما ورد في كشف الخفاء للشيخ إسماعيل الجراحي 2 / 79.

[45] إتحاف السادة المتقين للزبيدي 2/ 303،الدرر المنتثرة في الأحاديث المشتهرة للسيوطي 59.

[46] ابن عراق، تنـزيه الشريعة عن الأحاديث الموضوعة 2/ 277 .

[47] مجمع الزوائد للهيثمي 1/ 236 .

من بعده، فقد جاء في إحدى وصاياه إلى أحد قواده: "لا تحرقنَّ نخلاً، ولا تعقرن بهيمة، ولا تقطعن شجرة ثمر"[48].

وقد منع الإسلام تلوّث المياه والأرض بما يخرج من الإنسان، قال ρ: «اتقوا اللاعنين، قالوا وما اللاعنان؟ قال: الذي يتخلى في طريق الناس أو ظلهم»[49]، وعن جابر أيضاً قال: "نهى رسول الله ρ أن يبال في الماء الراكد"[50]، وقال عليه السلام: «اتقوا الملاعن الثلاث: البراز في الموارد وقارعة الطريق والظل[51]».

ونهى الإسلام عن تلويث الطعام أو تعريضه لذلك، فقد نهى عن الحدف، وهو أكل ما لم يُغَطَّ من الطعام، قال عليه السلام: «خمِّروا آنيتكم»[52] أي غطّوها، وقال: «خمِّروا الطعام والشراب»[53].

ومنع الإسلام من تلويث الفراش وتوسيخه حين قال عليه السلام: «من نام وفي يده غمر (أي رائحة اللحم وزنخه) ولم يغسله فأصابه شيء فلا يلومنَّ إلّا نفسه»[54] وصدق الله إذ يقول: [وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ] [المدثر: 4] .

وورد النهي عن تلويث الهواء بالنَّفَس المريض، وبيّن النبي عليه الصلاة والسلام أن النَّفَس المريض ربما يأتي بالمرض، فكيف بهذه الملوثات التي تخرج من المركبات والنفاثات ودخان المصانع ونفايات المفاعل الذريّة السامة التي تلقى في قيعان البحار، والمياه العادمة الصناعية الملوثة بالزئبق، ونفايات المعادن والكيماويات، والمياه الزراعية الملوثة بالمبيدات والسموم، بل يدخل في

---

[48] تهذيب تاريخ دمشق لابن عساكر 1 / 95 .

[49] رواه مسلم .

[50] مصنف بن أبي شيبة 1 / 141 .

[51] رواه أبوداود وابن حنبل .

[52] رواه البخاري .

[53] المصدر نفسه .

[54] رواه أبوداود وابن حنبل والبيهقي .

ذلك تلويث الجو بالأشعة لأنها خطر على الكائنات الحية كما هي خطر على البيئة، وكثير من الدول تحتار في التخلص من النفايات، وبعضها من الدول المتقدمة تحاول أن تلقيها في بحار البلدان النامية أو في صحاريها غير مبالية بما يسبب ذلك من إضرار وأضرار، وقد قال النبي ρ: «مَن غسل سخيمته على طريق من طرق المسلمين فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين»[55]، وفي رأيي أنّ الضجيج المؤذي كضجيج الطائرات والسيارات وسفلة الناس يلوّث البيئة لأن له تأثيراً على صحة الإنسان وسمعه بخاصة. ويزيد في التلوث الحرائق التي يسببها إهمال الإنسان أو الكوارث الطبيعية، وكل ذلك يدخل النهي عنه في قوله تعالى: [وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُوا۟ فَقَدِ ٱحْتَمَلُوا۟ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا] [الأحزاب: 58]، ويدخل في قوله ρ: «الإيمان بضعة وسبعون شعبة أعلاها شهادة أن لا إله إلّا الله، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق» فأي إماطة للأذى هي حماية للبيئة وحفاظ عليها.

والحمد لله رب العالمين

وبالله التوفيق

أ. د عبد العزيز عزت الخياط

---

[55] رواه الطبراني في الأوسط، ورواة الحديث ثقات . والسخيمة الوسخ.